كتاب كلمات

1

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

تلك الصغيرة التي تشبهك

فريد رمضان

ABU ABDO ALBAGL

كتب هذا النص في الفترة من
نوفمبر ٨٧ الى يناير ١٩٨٨

الغلاف من عمل الفنان السوداني
علي الجاك سعيد

فريد رمضان

تلك الصغيرة التي تشبهك

١٩٩١

فريد رمضان
تلك الصغيرة التي تشبهك
كتاب كلمات(1)
أسرة الأدباء و الكتاب
ص- ب ١٠١٠ - البحرين
جميع الحقوق محفوظة للمؤلف
رقم الايداع بالمكتبة العامة بالبحرين
٩٤٥ د . ع ١٩٩٠
الطبعة الأولى مايو - ١٩٩١
البحرين

علّ أطفال المدارس يبدأون بقراءة أسمائنا في تلك الكتب الملونة .

كيف لنا أن ننام عراة ، و لا نرى أجسادنا المنحدرة باتجاه سيدة تخرج كل صباح ، تمر أمامنا فنتبعها ، نكتشف الفروق البسيطة بين رائحة المرأة و رائحة الصباح ، نتقدم فتخذلنا حين تضيئ البحر بلمسة من أصابعها .

كيف لنا أن نتزاحم حول نافذة وحيدة ، في غرفة مظلمة نمعن في الرؤيا ثم نكتشف بأننا لم نر شيئا يستحق كل هذا العناء ، اذ لم يكن هناك سوى طفل ينصح شاعرا متشردا يدعى رامبو بكتابة الشتائم البذيئة على باب الكنيسة .

كيف لنا أن ندعو قادة الحروب ، و فرسان الليل الى هذه الحفلة التي قد تنتهي بفضائح و مؤامرات و دسائس ؟

كيف لنا أن نسمع صوت الطيور ، غناء الزواحف ، همس الرياح ، نداء المطر ، ضحك الشوارع ، حديث الشجر ، بكاء البحر ، و نحن عراة في جزيرة يكاد رحيق أنفاسها أن يغادرنا ؟

كيف لنا أن نقود لأجلك انقلابا ، و دم الفلاحين و عمال المصانع و المفكرين يخضّب دروعنا و نحن منقسمون بين الخيانات و البطولات ؟

كيف لنا أن ننظر جميعا باتجاهك أيتها المرأة البكر ؟
كيف لنا أن نستبيح سذاجتك الأولى بالفعل الأول ؟
كيف تعذريننا ؟

الى صفية

المشاهدات / اول

من لها في هذه البرية الموحشة غير مطر يتباهى بهبوطه الرشيق على وجهها ، يتسلل حول الوجنتين ، و ينزل باتجاه الصدر النابض ، الخائف ، و يبلل ملابسها المخضبة بدم كان قد انبثق على غفلة منها ، و فاجأها بلونه ، بانفتاحات قاسية بين جوانب الجسد ، باندفاعته الجامحة .

اذن

هي الذبيحة يجالسها اثنان :

مطر

و دم

ينسجان حولها مدائن قابلة للحوار ، و مدائن قابلة لانهيار يبدأ عادة من انفلات الفياضانات ، حيث تتدحرج الأسماء ، و الصور ، و العواصم .

وحدها موصودة بالأقواس تدرك بأنها تفقد شيئا من طعم التنفس ، و شيئا من رائحة النهار . فتراها تداعب الغيم ، و تدعو الفجر ليقود حكايات النهار الفاصلة بين تعب الريح وغناء الأمل . وحدها تنادي :

يا صاحبي ،
بيني و بين اللهاث المتبقي باب ينفتح ، باب هنا في الرأس ، يطل
على حدائق يلعب فيها الحنين و أفق من الأطفال .
من الرأس يخرج سيد ينفض رماد النهب ، و ابتسامة قناص ،
وجراحات صحراء تلهب عينيّ .
لذلك ، سأفتحه لأطل على حدائق قلبي و أغني لمواسم
العصافير التي تكتسح صدري و تبدأ موسم هجرتها .

يا صاحبي :

لابد و أن تكون أمي حزينة ، مفجوعة و مشتاقة . تتفجر من أردية قلبها أحاديث و رسائل لا تصل .

و أنتما جالسان هنا ، بين جسدي ، تنتظران . و أنتظر .

و أمي تسائل حيرة مرت فوق الجراحات القديمة . دلوها عليّ دلوها فهي في شك و في جنون تحاكي رياح باركتني ذات يوم و بكت .

يا ابنتنا الذبيحة .

يا سليلة الصوت المتشظي و التائه في هذا العراء المطعون بانقسامات و جرائم لم نرها و هي تتسلل في تلك الليلة من فتحات النوافذ . غافلتنا الحراب و نحن ساهران حول نار التضاريس ، و طعنتك بملحمة غابرة ثم اختفت في الروح لذلك وجب علينا نثر الحكايات المتعبة لنحتسي ألماً يشبه النبيذ .

فماذا نفعل ؟

تفسير الحزن

حتما ستظل القوارب الراسية فوق صدرها تتمنى موجة قاسية تأخذها بعيدا باتجاه العواصف و المنارات ، عبر المقلتين و الثقوب المليئة بالضحايا ، تنزلق من أنفاسها تلك الأيام متفجرة :

كم كانت تجلس ساعات طويلة قبالة مرآتها ، تحاكي النوارس المرحة ، الحاملة أسرار العشق ، تتنزه في الحديقة المفتوحة على قبلات المساء ، كطعم الأمواج الراحلة دائما

باتجاه أحبابها ، كسوسنة الحلم ، كحديث الصور الباحثة عن مواطن لا تغتال أناشيدها و لا تجرف الألوان الهادئة المرتاحة فوق الوجه – نحو مشانق القوارب التي تركت كل شيئ لهدير الشاطئ البعيد .

حتما ستظل كرمل يحتضر و ينسى . علها تنسى لتقوم يوما مزهوة بصوت خطواتها و هي تدك الأرض ، علها تعيد رقصة الجلوة ، و الفرح المسافر حزينا ، و حزينا ، تصاحبه أحياء الرأس الى واحة مضروبة بنبضات الجفاف . يا لها من امرأة ، تبصر القناديل ، تضيئ تجاويف القلب ، و لا تقدر على البكاء ، ترسم بيدها خرائط لأحداث شوهت هذاالجمال و ألقتها على قارعة الطرق المكتظة بأشباح الجنة .

، تظل و تبقى ، ..

تتطلع لغرفة تحاصرها ، و نافذة مغلقة ، ثمة ذئاب تثقب الزجاج بأظافرها . خائفة ، يائسة ، و تدعوهم لوليمة قد تريحها من هذا العذاب .

انها مجبرة عى أن تكون ملكة الذكريات ، و ملاك الحزن .

المعالم الباهتة

سأخبركم يا جمهورا يتقصى لأجله الحقائق ولد من جمر ، تدلت صواعق الأيام من وجهه ، و تفجرت سلالم الأنهار من تضاريسه ، مندفعة نحو المنفى ، تشق لها دروبا لا تصل البحار .

سترجعون يا جمهورا متأبطين حكاياته العذبة ، و هو مهزوم يجر حادثة غامضة ، منبجسة من ثنايا السفوح و مناجل أشكال مبهمة وضعوه فيها .

بماذا سيخبركم يا جمهوراً تعباً لا يملك غير مناداة أسماء غادرته مع الأحاديث ، ماذا سيقول و أنتم تحيكون الحادثة بألوان قوس قزح ، تحيلونها رمادا ، هلوسة ، خدعة ، جريمة ، مصيدة .

كيف يمكنه بعد هذا ، بعد كل هذا ، أن يشرح لكم حديث التقارير و لعبة الأختام و فرح الجنائز . جسد سليم لم يصب إلا بضربة ساخنة في الرأس عميقة كبئر يدفع دمه ، يخلعه من مناصب الخلايا و يقذفه باتجاه منافذ تنتظر المستنجدين .

سأخبركم يا جمهورا يتقصى له الحقائق ولد من الجمر ، مقذوف الآن في رياح الحزن ، يقابل أباً طاعناً في الغرابة ، يتبعه بلا هوادة ليعيد له صلابة الصلاة و شموخ البحارة ، وأحباب السفائن الذين كانوا .

كيف يمكن يا جمهورا لولد مثل هذا أن يتقصى لكم الحقائق ، و هو الآن في انشغالاته الخاصة يتخمر ، يصلب عوده و يعيد فرائص الحياة لنساء فتحنَ نوافذ المدينة ثم نمن بانتظار تسلل الموت اللطيف .

رائحة النهار

رجل كلما مر يوم ازداد غيابا ، بين سكارى الموائد ، يقود كوابيس الحشاشين و يختبئ في الرغيف قبل أن يلتهم العالم حديث الجرائد و همس صباح يعود مثقوبا بطعنات الأطفال يرمي كاحليه و ينتظر اعلان وفاته في الاذاعة الرسمية ، يتشظى كنجمة فقدت مدارها و أدركت بأن حراس القصور ينامون متأكين على أحلام قابلة للانفجار في أي لحظة .

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

له الآن انفصالات عمر انقضى ، و له أن يدرك ما يحدث : قساوسة يجلسون في بار ، يمنحون قناصيهم نخب أمسية باردة فوق منبر مطعم بالنبيذ .

يصرخ فيهم :

ثمة ذبيحة يأخذها الرب نحو بيت مأهول بصور أجداد ناموا و تركوا مائدة مفروشة بأنواع كثيرة من الأكل ؟ سمك مشوي ، رز ، فواكه طازجة ، و قوارير مليئة بالسم ، فلماذا لا تصلون ؟

لا يقوى على تحديد أمور و شواغل انزلقت من ذاكرته ، و شاركت المطر جريانه نحو فتحات المجاري ، بل و من برؤيا باطشة ، باغراء عاصف .

لا يصل يوما بدون حديث ، فله مع الخمرة قصص تشتعل دائما بعد منتصف الليل :

* حكاية ولد مضى في همس الريح ، يبحث عن ذراع أنثى تملك مفتاح الخرائط ، و انفجارات التضاريس ، و بوصلة الهتك .

يأتي مبجلا بشهوة الأيام ، و عنفوان الفتيان ،

تستقبله الشوارع ، و المخبرون الملوثون بزبد العواصف ،

ينصتون لحديثه عندما يدلف الى المنزل ، أو يخرج من كأس البارات مزهوا برقصة زوربا الذي لطخ الجدران بخمرة ثم شنق نفسه بهدوء.

كلما يصل ، توقفه المحطات الكثيرة لتلقي عليه أسئلة موتى خسروا فوضى التنفس .

ولدٌ كلما اقترب أدرك بأنه لم يصل و لم يرَ .

* حكاية أماكن لا تكفي لأخت تملك تاج الكون ، تبني الأوطان الصغيرة لتسع حضارات انسحبت بخيامها و أنقاضها الهشة ، بكتبها المحروقة و رسلها المخذولين ، نحو بقعة أسست تاريخ الانتفاضات الفاجعة . أماكن كلما تتسع تضيق بها البحار .

رجل لا يصل يوما بدون حديث ، ينتظرامرأة الأرصفة عند ناصية الشارع ، يأخذها لتضربه بجسدها كلما ابتدأ وقت النهب .

ذاكرة [١]

أفكر في الطرق المؤدية الى ذاكرتي ، علّني أفتح عينيّ ، قبل أن يهيل عليّ أعدائي التراب ، ثم أصرخ فيهم :

كم أنا سعيد لموتكم

المشاهدات / ثان

للنفير

لزوبعة الجسد

للكائن الغريب ينام أو يموت بهدوء .

لا تعرفه الكائنات البرية ، لكنها تقترب من وجهه ، تجرؤ على ملاطفته ، تناغيه لينسى الألم أو لينسى آت يشبه الصراخ المكشوف ، المرتبك ، العاجز .

ملقاة و دمها ذاهب في نزهة مع سيل المطر الذي لم يتوقف .

من الرأس تنفلت مرآة الصور :

كانت وحيدة في حديقة ، تتزين بالزبرجد و الفضة ، حولها فتيان يقتربون ، يلاصقونها فتهديهم يدها ليطبعوا عليها قبلة شوقهم الجارح ثم يبتعدون باتجاه المعابد و ينتظرون خيارهم الصعب .

يأتي سيد ، يفلق الرأس بالذهب ثم يبيح دمه لنهر العشاق .

٥ ٥ ٥

عروسة كانت في قارب أبيض ، يندفع بهدوء في نهر الكوثر ، تحرسه أصناف من الأسماك و الحيوانات المائية .

عاصفة جاهلة جاءت لتغري هذا السحر و تغزوه و هو في أجمل أشكاله .

٥ ٥ ٥

قتيلة مازالت تحتضر في قصر صحراوي ، يخدمها صديقان عزيزان ، يغسلان شعرها بندى الأزهار ، و يدهنان جسدها بزيت مستخرج برفق من تمر و جوز و كلما أدركا قرب رحيلها ينسحبان بعيدا و يبكيان . تشعر بحزنهما فتناديهما :

يا صاحبيْ ،

اقتربا مني و اسكبا في أذني نهر الحكايات ، اني أشعر بالعمر ينسحب مأخوذا بصلاة الموتى . فشاركاني هذه الفرحة القصيرة ، و أعلن أيها المطر عن بدء كرنفال نرقص فيه معا ، و ندعو له جميع العناصر الساكنة هذه الصحراء .

ينظران بدهشة نحوها و يقولان :

يا ابنتنا الذبيحة

لقد أرادوا لك صمتا جديدا لا يصافح الأحاديث ، أو يدحرج الفراسخ المحبوسة في أقفاص السمك . تركوا في رأسك فجوة تطل على القمر المختبئ خلف فوضى الغيم و تركوك .

لقد رأينا وجنتيك تشيران نحو حبيب هزمته الجرائد و المجالس ، غائب ، خائف ، و تمنعه المناصب .

فماذا أنت قائلة و ر وح الحكاية مازالت تنثر أنفاسها علينا ؟

لذلك سنمضي في سرد الألم ، و سندعو ذكرياتك القادمة المحملة بالهدايا ، لتنثر ريحانها في هذا الكرنفال البهيّ .

الكرنفال

سأضيئ الأضواء ، قالت هازجة الصحراء ، و سيتحول هذا القصر الى منارة ترشد جميع الزحافات و الأعشاب البرية المتعددة الأشكال ، يتقدمون حاملين هداياهم و أغانيهم القديمة .

فهذا صبّار بيده سيف من نور ، يصطاد النجوم الثملة ليعلقها فوق سور القصر، و تلك فقعية تجر شجرة لا تجف أغصانها ، و لا يفنى ثمرها . أوراقها مزينة بأسماء المدعوين . و هذا هو الجمل التائه من الخرائط يسحب معه أصول الرياح الأربعة ، جاءت مسرعة و أحضرت معها برودة و نبيذا عذبا

اذا شربوا منه يخرج كل ما فيهم من حزن و من تعب .
و ها هو الشقنقور يدفع نفسه مترنحا ، كأنه يسبح على الرمل ، يغطس ثم يرتفع ، يجر خلفه ألعابا نارية تضيئ السماء بين اللحظة و الأخرى .

في باحة القصر يتوزعون ، يلهون بالأحاديث ، و الغناء ، والرقص ، و الألعاب السحرية ، ناسين الوقت و هو يمر مسرعا من أمامهم حاملا خواتم الفجر ليوزعها على أصحابه المجهولين .

و هي وحدها ، في الشرفة جالسة على عرش من نور ، حولها الصاحبان اللذان يرحبان بالمدعوين . يحيونها و يقدموا هداياهم الأليفة ثم يمضون باتجاه الصخب ، و الرقص .
تطالعهم ، تراقب أقدامهم وهي تدك الأرض بحركات متناسقة مع الموسيقى . تتابع الأيدي ، ترتفع و تنزل ، تعانق بعضها بفرح جميل . و هي !

ها أنت تفتحين الأرض ، و تفرشين الذكريات فوق هذا السجاد الصيني لتنهض الأصوات و تتقدم ، جارة حروبها ، و رنين أجراس كنائسها . فانهضوا قليلا أيها المدعوون من الذاكرة و أنشدوا باسم هذه الذبيحة حديث الأمس .

هكذا قال الصاحبان

هكذا قال الصاحبان و فتحا الأبواب الكبيرة ، المرصعة بالزمرد ، و الزبرجد ، و الياقوت ، فتدافع جمع كثير يريد الدخول ، يتزاحمون ، يتساقط بعضهم ، و بعضهم يدوس الأخر . يمرق من بين هذا الجمع مغنٍ كسر عوده و تحاصره ثلة بخطابات قديمة .

– دعوني أسمع غناءه .. دعوني أسمع خطابهم .

هكذا قالت الذبيحة .

المغني

ماذا دهاك أيها المتكور كضباب الطرقات ؟ أفق من هذيانك و قدنا نحو مرثاتنا المذهلة . ألا تدرك من نكون ؟ نحن الذين تركنا عيوننا فوق رفوف المصادفات المحسوبة و انحدرنا من سلالم الجبال متأبطين شعلة الدليل و حديث الأيام ، قادمين الى ذراعيك ، فأسندنا قبل أن نتدثر بعراك موجع مع خليقة الغبار . أفق يا أيها الأخير فلن نكون لغيرك تابعين .

أسكتوا أيها المسرفون في التيه ، دعوني أتلطخ بنداوة هذا القلق اللاهب ، و ذاكرة المجهول ، ارحلوا عني ، أتركوني في هذا العراء أكبر ، أو أذهب نحو أمسيات البحث عن زهرة كانت توقظني كل صباح لأدخل براري الذهب ، و أحصد هول التعب

لن يثنينا رجاؤك أيها المسحوب من الأحشاء و الأعراس المرهقة . سنفتح أبوابا نريدها ، و ستقودنا نحو براثن الرؤيا ، نتحسسك لندرك أنك النور المتألق في الغابات ، و أنك هدهد الطرقات ، تتبعه أودية القوافل .

رأيناك مرارا تراسل الهواجس ، و تفتح خطابات سرية ، موقعة بأسماء المطر . حينها سعدنا كثيرا و قلنا : علّه يتوصل الآن لخيار و يدرك معنى الانهيارات التي تحدث مع فجر كل يوم .

اسكتوا يا قنافذ المغارات المنهارة ، و دعوني أوزن صوت
الريح لأبدأ الغناء .. سأحكي للمستمعين أناشيدكم
المسروقة من ضوضاء الينابيع ، و أنهار الدم . فماذا تريدون ؟

كم نحن حزانى لأجلك أيها الأخير لأنك لم ترع جمال صوتك ، و ذهبت في انشغالات شعب كان يهدي ملكه صبايا النور ، و ينام على أصوات أحفاده المصلوبين على جدار المملكة ، تلتهمهم الصقور الذهبية كلما جاعت .

لقد وجدناك صغيرا و وسيما ، لك ذاكرة الأماكن وحنجرة البراكين ، فسهرنا عليك نسقيك أسئلة تعج بها الشوارع ، وأهدينا ك امرأة هي زهرة المرايا و بهاء الحاضرين . فلماذا انتزعت من الليل ليله ، يا سليل الدخان و فوضى الأسر .

كفى ، دعوني أخرج عليكم بقصائد تتزين بنغمات الهجس وشرنقة الحيل ، ستوصلكم الى مقاعد عالية ، مطرزة بعرق المنبوذين . يكفيني أيها النبلاء أن أنتظر مجيئكم و أنتم لا تصلون الطرقات المؤدية الى مدائح الشغب المنتشر في

شرايين القوافل ، و مصانع النبيذ و حقول النرجس ..
حتما لن تصلوا ، فدعوني أتلطخ بنداوة القلق اللاهب ،
و أستريح في نغماتي ، لن أقودكم ، و لن أضئ الطرقات
المرعوبة فتماسكوا جيدا ، و سيروا بمحاذاة الأسوار ، علكم
ذات يوم تصلون لخراب المدائن و الممالك . هذا ما أستطيع
أن أقدمه ، فدعوني أشارك في هذا الكرنفال .

الرقص سيد الحفل ..

الألعاب النارية المفتوحة تنفث رمادها المصحوب بضحكات الزواحف . و الصحراوون اللاهون بهذا العرس ، يصفقون للمغني وهو يتقدم نحو فرقته ليوزن الأجساد ، و ينشد مراهنته

و أنت أيتها الأرض المذبوحة ، كيف لك أن تختاري ما للمساء من سلطان كي يقدم مرايا الترف المفاجىء . هل تشاهدين المتسائلين الجالسين بعيدا عن هذا الصخب ، انهم عازمون على أن يكون للوقت وقتا لا يسفك . فليأتوا و يلقوا عليك أسألتهم الأبدية .

كيف لنا

كيف لنا – نحن المتسائلين – أن نمشي جميعا باتجاهك و نتكلم في الوقت نفسه ، و نقول الكلام نفسه الذي لا يفهم ؟

تصادفنا كل مساء ارتباطات الشارع الذي نسكن بالقرب منه فننحني ، علّ الشخصيات الحكومية القلقة تمر وهي مطمئنة على سلامتها .

علّ المراكب الجاثمة تغادر المرفأ باتجاه أفق تسكنه امرأة تنادي بحارتها المتعبين من النوم .

أيتها الذبيحة ها قد جاء الشاعر الميت ليشاركنا في هذا الكرنفال . سندعوه لالقاء الشعر المفجع و سنأخذه بعد ذلك لمقبرة تريحه من هذه الكتابة . هيا قدموا له النبيذ الطيب ليتسنى لنا أن نحكي قصته .

موت الشاعر

مات مرة و نهض ، أخذته الرسائل النادرة الوصول و ألقته في ضوضاء الأسواق الشعبية . بالقصائد تنجلي السنوات الطوال المرهقة ، و بها تكتمل الصور الجميلة لراعي العواصم ، يقودها نحو السهول الحاضنة للعشب و الماء المرافق للشعب .

مات مرة و نهض .

بحث عن أريكة خالية في ضوء القمر ، جلس صامتا لزمن طويل ، و في زمن آخر حكى شهادة موته :

نحن الذين رأينا ، شربنا الصدى ، و أكلنا الرذاذ .

ألا تفهم يا صاحبي ؟ اني سئمت من التنفس و من يدي .

يا صاحبي النائم ، لم تعد رؤيا فتوحاتي مغرية لدخول الفرسان و حاملي الرايات . لم أعد أصغي لحديث الاذاعة ، و للتقاسيم الجديدة ، فالشوارع مفتوحة لنار التقلبات .

نحن الذين وزعنا نخيل القلب ، و صادقنا الهواجس و الاحتمالات ، انتظرناها طويلا و لم تأت .

أتكلم ، فاتحا أبراج توابيت مألوفة ، أقمنا عليها أعراس الصبايا المرتديات حزن اللغة .

أتكلم ، لماذا تحرصون على التنزه في آلامنا المفضوحة .

مات مرة و نهض .

خطف في غمرة المكالمات الليلية بذورا كانت تصطاف فوق الساحل الثلجي ، و أعلن من خلالها شهادته الثانية ، لم

يجزع لطرق الأبواب التي يدخلها ثور المصارعة المهزوم دائما ،
بل جزع لمدن ترعى بدم أبنائها .

كلما دخل بموته وقفت في وجهه المرايا و نادته :

يا سليل الحرف و دليل القمر ، أنجدنا من هذا الغزو .
أنجدنا
أنجدنا
أنجدنا .

لأجلك أيتها الممجدة بالدم سأكون غيباً يحكي الآن مجد نديميه
اللذين يسهران هذه الليلة في كوكب آخر . يتقارعان الكؤوس
نخب أميرة تنسج للرياح رداء مسيرتهما .
لأجلك سأفضح يومياتي الهاربة مني دائما ، و سأرقص في
حفلتك حتى يأخذني السكر لجهة مجهولة .

الندماء

الى [س] و [ح]

كل مرة يبحثان عني ، يجداني في الحوانيت مقيداً ، يحاصرني عساكر الجسد حتى الثمالة . آنذاك يبدآن بفك أجزائي و استبدالها حتى أصل سالما الى المنزل . يجلسان قبالتي صامتين ، ينتظران ساعة نومي المحتملة كي يخرجاني من ملابسي و ينسجان حولي ثوبا أبيض قابلا للاشتعال ، ثم يدعوان كوابيس تناصبني العداء .

كل مرة كانا يدلفان الى حزني ، أنثره بفرح عليهما ، يحملانه و يغادران ، أودعهما مواصلا البحث عن أشيائي الخاصة ، مثل :

خصلة حبيبة غادرتني و أنا أحكي لها عن ماضي شخص تقمصني ثم سرق خزائن البنوك . أو أذهب باتجاه غيم و أحزم هموم الشتاء ثم ألقيها على سيارة ترابط كل يوم عند باب بيتنا معتقدا بأن هذا أفضل حل لابعادها .

أو أتوجه الى سكرتير المدير الذي هدد بفصل أبي و أخبره بأنني قد تبولت على أحذية رئيسه التي يحملها كل صباح اليه . أو أدعو عاهرة مريضة لتغريني بليلة مريحة . .... و حين أتعب من الحديث أحاول أن أنام ، فتخرج على غفلة مني أحدى الشخصيات التي كتبت عنها سابقا ، تتنكر بزي قديس ، و تدعو لتوبة الانقلابات و صلاة الريح ، و حين أوقفها تطلق علىّ رصاصة من مسدس كنت أحتفظ به . فيأتياني محملين بثقوب الجراح ، يستلقيان بقربي لننزف معا رسائل مطوية بعناية فائقة ، حين نفتحها تخرج منها شعوب تعلن العصيان .

كأنهما كانا هكذا ، يشعلان سجائرهما معا ، و يستمتعان بالتدخين ، ينطلقان في شوارع مزينة بقوارب تعانق أشرعتها الأنين ، فيجران جمعا من الأطفال لمشاهدة عاهرة عجوز لا تتمالك نفسها فتصاحبهما كغنيمة لقضاء سهرة ممتعة في احد المراقص .

بتردد يحتوياني لأقضي معهما وقتا ممتعا حول مائدة تدعونا لدخول باب يفضي الى نساء يهوين صراع عشاق ينامون بين براميل الزبالة في عاصمة مسروقة منذ ساعة .

كأنهما كانا سارقي العواصم .

خطوة ، مرة أخرى

الشجرة التي لا تجف أغصانها تمتد
و النبيذ العذب لا ينضب
و المدعوون يراهنون الفرح المندفع كشلال في
أودية هذا الحفل .
و الصاحبان يهتفان للذبيحة وهي تحمل جراحها
و تشارك برقصات غجرية .
رويدا
رويدا
أيتها الحاضرة من الموت رويدا
ها هي طفولتك تخونها الليالي الباردة تتقدم الينا ،
حاملة خطواتها الجريئة، باحثة عن خطوات أخرى .

ها هي تخرجة من معنى الحروف مبتهجة ، لتعيد ترتيب علاقاتهابأشياء لا تنظر و لا تمس . كيف يحلق كأس الماء عابرا شواطئ العطش ؟ أو كيف تموء القطة السيامية حين تحك جسدها برجلين طريتين تعرفتا منذ شهر على مكاشفة الخطوات ؟ أو تدعو نفوسا يائسة لصبر جديد و مجاعة قادمة .

تبدع الابتسامة حين تكتشف صلعة جدها ، تبني فوقها جسرا ثم تدعو الدمى وهي تنشد أغنية عيد الميلاد ، تتبعهم عرائس مصنوعة من القش المنزوع من ذاكرة ضحايا الحرب العالمية الثالثة .

تصغي جيدا ، أصابعها تخدش أبواب تمنعها من ملاقاة الحوذي الحامل الحكايات وأسرار المسافات . قابلته مرة وخطفت منه مخلوقاته ، فرمته المدينة بالأصداف و الشتائم لأنها لم تعد تسهر على استعراضاته المثيرة .

ذات يوم نادت بأسمائنا المجهولة ، و أشارت ناحية مروحة تدور فابتسمنا حين بكت و نهضت تقبلنا ، الواحد تلو الآخر مما أثار استغرابنا فضحكنا بصوت عال .

فجأة رأينا كائنات تنزلق بفرح من أجنحة المروحة :

* بجع ينزل بالمظلات ثم يبدأ بالرقص .
* سناجب تمد حبالا و تنزلق فوقها ، تفتح جهاز التلفزيون لتتابع الرسوم المتحركة .
* رجال يشبهون بابا نويل ، يمسكون فؤوسا و هدايا ، يقفزون الواحد تلو الآخر ، يتوجهون نحو الأبواب و النوافذ ، يحكمون اغلاقها ثم يبدأون بمطاردتنا ، و قطع رؤوس بعضنا التي تدحرجت و ارتطمت بالمناضد و الأدراج و المقاعد .

اختبئنا – نحن الناجين – خلف مقدمة البرنامج حين ظهرت فجأة على الشاشة ، فتحت أوراقها و قرأت بيانا مستعجلا ثم انسحبت فسارعنا بالخروج .

رأيناها ، تلك الصغيرة التي تشبهك ، و هي تلملم معاني الحروف مبتهجة ، فرحة ، تشير الى صلعة جدها فحملها و ركض مسرعا خارج المنزل .

أيتها الحاضرة من الموت و من الحفل ، الفجر قادم يجر ضوءه الخافت ليزعج النائمين في غرفك العالية -، سيوقظ الحبيبين العاجزين عن فعل الحب ، و فعل اليوم . انه يتقدم باتجاه نافذتهما .. انظري ، انه يتسلل من بين جوانبها يدخل عليهما بهدوء ، ينثر رتابة أيام يقضيانها معا .

أوليس هما حبيبيّ الرتابة

الحبيبان

إيه أيها النوم ، ها نحن نفتح عيوننا ، نتطالع ، نرسم بسمة الصباح المتصلةبهذيان يومي . هي تخرج من فراشها ، تاركة صغار النوارس تبحث عن مجد دافئ ، تعد الشاي وتسرف في استهلاك السكر . أنا أصافح عذوبة الماء و رغوة الصابون ، أكتشف بأن أسرى الحلم ما زالوا مكبلين بحروف اللغات .

نشرب شاي الصباح المبهرج ، نتبادل بضعة كلمات قصيرة حول زيارة صديق في المستشفى ، أو حول صديقة أنجبت ابنها الثاني بالخطأ، أو حول دعوة الأقارب للعشاء .

ننفلت في الشارع الرطب ، توقفنا الاشارات و رائحة الطلبة و أشكال رجال المرور و مرح أطفال الروضات و غبار العربات .

أصل الى عملي متأخرا كالعادة ، تستقبلني قهوة الساعات الأولى ، و حديث أوراق تجاهر بالروتين اليومي . نبدأ في نسج الأسماء و الحكايات :

تتباهى الزميلة اليوم بفستان سرقت ثمنه من زوجها بعد أن شنقته .

الزميل يبدأ بالانشاد المكرر حول زوجته الخائنة .

تتصل بي من مركز عملها ، تخبرني عن فصل زميلتها ، و عن موظف يتمنى أن تبتسم له يوما ما .

أتابع ركض عقارب الساعة ، أركض معها ، يتبعني جمع من المحرومين و العيارين ، نرى امرأة تتقاسمها الجنازات ، و طفولة يكيد لها التاريخ ، و شعبا في كهفه يصدأ مع الفولاذ و أصدقاء يختفون عنا ، في الموت و في الزنازن .

أنتظرها بعد انتهاء الدوام ، تأتي و تأخذني ، في السيارة نتناقش في فعل المساء . نأكل بسرعة خائفين من وجع يأتي متأبطا جراحات الماضي ، نغسل الصحون بسرعة، و بسرعة نعد الشاي ، نحاول أن نقرأ جريدة اليوم . أغفو فيأتيني أسرى الحلم المكبلين كالعادة بحروف اللغات .

في المساء نخرج ، نتبادل زيارات سريعة ، و أثناء عودتنا يصرخ كل منا في الآخر ، نثير الفتنة بسبب أتفه الأشياء ، نلقي بتعب نعرفه جيدا في وجهينا ، نغتسل بالأرق و نتعرى ، ثم نبدأ بسرقة القبل فنزداد تعباً ..

تعباً ..

تعباً .

ها هو النهار قد أزف علينا بسطوعه ، و ها أنت تنامين على الطريق الصحراوي ممزقة الجسد ، لا تذكرين من الكرنفال شيئا .

اذن لنكمل الحكاية

المشاهدات / ثالث

ستنهض وحدها / قال الفستان الممزق

شامخة تقتحم المشهد الجديد ، لا لتزيح الغبار ، بل لتخفي مفاتنها المكسورة و تتقدم باتجاه البراعم الذابلة ، الأطفال الوقتيون ، الأشعة الفاتنة ، و فسائل الدم .

ستنهض من جديد / قال الخاتم النوراني

زاهية في هذا الفراغ المقتطف من ثراء البرد ، تفتح مشاهدها الجديدة يوما بعد يوما لا لتنصب جنة الريح ، بل لترغم هذا الليل على الصراخ الجميل ، و على البكاء .

انها الذبيحة القادرة على مقاطعة صوت الأرض أو صوت الموت . تهتف في هذا الرقاد الفاتن ، و تدعو جسدها الناعم أن يرتدي طعم الحرارة في هذا الوقت المبتل بالظل ، و البرد ، والموت .

ستنهض / قال الصديقان الخالدان ثم امتدحا ما يفعله الموت بالموت ، و بما يفعله الشعاع الأكثر وحدة بأسيرة نادت القيد ليشد على القيد بود ، و بهدوء :

يا أحفاد السفائن ، يا فعل الريح ، يا اسرافة الخداع ،
و يا موقد الصهيل المتنفس في هذا الحياء الرقيق و
مراهن الكلام .
لم تعد تكفيني الحيلة ، و لم أعد أقوى على هذا الحمل ،
لم أعد ..
لم أعد .

يا ابنتنا / قال الصاحبان :

يا وردة اللهفة ، و يا نور القيامة ، و يا كاشفة الصيغ
الرشيقة ، خذي من روحك قليلا ثم انهضي ، فثمة ولد
منبعث كغزال يصيح بفاكهته الدافئة ، يشهد الآن سطوة
ذاكرة لن تهدأ

و لن

تسكن .

لذا وجب علينا أن نصوغ معنى الحكاية و أن نبدأ من هنا .

الطائرة

الانتظار، الفعل الوحيد المنفلت من زمام الجميع، هو الانكسار المزمن لجيوش تخاف التواريخ القادمة ، أو قرية تتربص بالزوابع المطلة مع ضجيج التنفس . دائما لا تحتفظ الأشياء بألوانها ، دائما هكذا .

وحيدة في ساحة المطار أنتظر، ترتاح عجلاتي على الرصيف، تمتد أجنحتي اللازوردية .تطالعني نوافذ مبنى المطار الكبير ، أتفرس فيه كل الوقت، زجاج نظيف و لامع، يقف قبالته مسافرون مضربون عن الطعام ، يمتحنون قدرتهم على الموت .

لابد لي من هذا الانتظار ، هذا الحوار المشرد يهبط عليّ كلما سكنت اليابسة ، كلما خرجت من منعطف التحليق فوق أرض مستديرة ، تحيطها وجوه تدور بحرية في هذا الفضاء .

هل يمكنني أن أغادر صمتي ؟

تعالوا أيها العمال الفارشون اسفلت المطار بالحقائب و الصناديق الكبيرة، سأخذكم نحو رائحة عطرة في كون يرحب بالقبلات المفتونة ، و بصداقات أبدية مع فاتنات الفضاء . تعالواأيها المتعبون من الأحلام و من دوران المراوح .

رابضة في ساحة المطار ، كان التعب يصافح المسافرين ، و يصعد معهم السلالم ، و يتوزع مثلهم في المقاعد ، يربط حزام السلامة و يسترخي بانتظار مضيفة تجيد الطعن .

فهل يمكنني أن أغادر صمتي ؟

أيها الموظفون الذين يعلقون المطار في رقابهم ،
أعطوني النشيد و نرجس الحكايات :
سبعة أيام تفتح الأرض لقنافذ القارة الجديدة.
سبعة أيام و أنتم تغسلون وجوهكم من تعب السهر ، و صمت الحداد .

شك يساورني في هذا المساء المعتم ، أضواء المدرج المتوزعة ، عربات الشحن ، موظفو الصيانة ، المبنى الكبير ، حرس المطار ، و قائد مختال يشهر براعته ويروض شكيمتي .

سيسرد للفراسخ هلوسة التضاريس و أفراح الماء . لذا – يقيناً – سأفتح صدري بعد قليل لدقات الطبول ، و لافتراس عذارى الغيم .

حديث البارات

حول البار كنت مواليا للشرب ، و كان الرعاع وحدهم ينحنون و يصلون لي بلغة لا أعرفها ، و أنا أهز رأسي . لا يضير ما دام الكأس يرتقي لمنصبي و لا يخلع جسده ليفضحني . تطالعني النادلة، كأنها تحاول أن تضع في الكأس سؤالاً لا أعرف اجابته ، و أقول لها :

أنا الموالي و لي تاج عجاج مصلوب عند صفيحة النبيذ ،
تسرقه السفاسفة حين تهب في آخر المساء .

سألني صاحب البار : شكلك لا يوحي بالطمأنينة . قال ذلك و ظل يمعن فى تمساح كان يلف خاصرتي و يأكل المكسرات راضياً ، مطمئناً . نظرتُ للنادلة ، ما زالت تتحين الفرصة لتضع سؤالها في الكأس . قلت لها :

أريد أن أنام كما تنام هذه الزجاجات المرتخية بحب
فوق الرفوف ، أريد أن أموت كما تموت الفيلة ،
جماعات ، جماعات ، نلتقي بود و نودع بعضنا بود .

حملتني ، كم كنت خفيفا ، لا أعرف أين تركتني أسبح ، شعرت بثديين و صدر يغلق بابه عليّ لكي لا أخرج وأواجه صاحب البار الذي يتربصني و يتبع خطاي .

..... لكن ما حدث كان من الصعب عليّ أن أصدقه ،

كنت مواليا للشرب و المرأة تنكر بأنها نادلة في هذا البار و أنها كانت تطيل النظر اليّ كل صباح و أنا أمشي ، أعبر القارات وأخبر رعاياي الذين يخططون الآن لقتلي بأنني لم أعد أملك كنوز المحيطات و أنني قد خسرت كرسي السموات حين لعبت القمار .

ضربت بالكأس على الطاولة و قلت لها بغضب : أنت تلك الطفلة التي أشاهدها قرب المستشفى حيث أقود اليه يوميا ساحرات الباطن . تقفين في نهاية السلم الطويل فأدعوك للنزول ، تتمنعين فأذهب نحو طرق غير مأهولة بالخطوات .

في المساء أجدك امرأة ناضجة ، تفتح لي صدرها و تقول :

يا طفلي ، يا سليل الصولجان ، و يا مؤسس الفتن ،
تعال رافعا راية الميراث ، ماسخا مجد القبائل .

فأركض نحوك خائفا من روث ظلام بدا يغطيني .
أبكي في حضنك و أنام .

– أنت سكران . قالت لي ، و أردفت :

المرأة لم تعد المدينة و لا الطفلة ، انها أشلاء قتلى و هزائم
تستقبلك كل صباح ، تثير فيك رغبة البقاء في التيه .
الخمرة تخرج من جسدك عارية فترتدي أول جنون
يقابلها في الطريق .
أفق يا من كنت شراباً . أفق .

وحدي أدخل بارات المدينة و لا أعرف من نسائها غير طفلة .

– أوه .. ما أسم تلك المرأة ؟

موسيقى

١- عم مساء أيها المساء .

أمامي امرأتان ،

صورة معلقة لأختي المشتعلة ، و أخرى لامرأة تدعى ميونخ ، و أنا محاصر بداخل منارة تضيئ الدرب لكلاب المساء الرابضة تحت شرفة فندق يسكنه امبراطور يحملني مسؤلية ضياع أملاكه حين فقدها في كابوس طويل .

لو فكرت في الخروج سيلاقيني حتما ذلك العجوز وهو يشعل الغابة المجاورة ، يحمل بوقه و يرثي المساء قائلا :

أيها الملتجئ الى دارنا بعد تعب النهار ، لا نملك لك أسرة تستريح فوقها ، أو قهوة تأسرك بدفئها . قل لنا أيها الملتجئ كيف حاصرك الموت و ابتلاك بظلام الجهات و أنت وحدك في هذا الشرك ، تسمع نبض الغيم الأرجواني ، وتستسلم للحروب الصغيرة .
قل أيها الملتجئ ، و التجئ

٢- رائحة التيه .

أمامي امرأتان

صورة معلقة لأختي المشتعلة ، و أخرى لامرأة تدعى ميونخ ، و أنا أحدق في خطوط كفي ، و حول رقبتي يتدلى ثعبان يتضور جوعا . تخرج المرأتان من الاطار ، تتجه أختي ناحية

الشرفة ، تدعو الغيم للدخول ، فيأتي متأبطا رائحة البحر البعيد و يلتف حول جسدها ، تدعو الأشجار والقطط الطائرة ، فتتقدم فوجا يتبع فوجا ، تمرح في الغرفة الصغيرة ، أحاول أن أنهيها فتدعو النهر و قطاع الطرق ثم تبتعد ، هي و الغرفة و الكائنات الأليفة .

أرى نفسي واقفا و الثعبان يلتف حول كاحلي و يبدأ في الصعود ، المرأة تبتسم فأسأل :

– كيف حالها ؟

تومئ برأسها ، تأمرني بأن أتبعها ، فندخل في أروقة تفضي الى أروقة أخرى ، نمر على أسرة تنام فوقها جماجم مندلعة من طبقات الصهيل و الرعود .

أسأل المرأة التي اختفت فجأة :

– من هؤلاء ؟

– ... .

ثمة باب أمامي ، أفتحه و أرى .

أخت ممدة ، تنتظر قبلة البلاد البعيدة ، تسأل عن أسماء تركناها تودعنا في ساحة المطار .

– ماذا جلبت لي ؟

– مطر .

أخرجت من جيبي مطرا و نثرته عليها . من السقف تنزلق الصواعق ، و كتائب الرعد و جلجلة الريح .

دخلت الممرضة الغرفة :

– ماذا يحدث هنا ؟

– انه المطر فاحتمي .

ضحكت و أخذت مكانها بيننا ، رأيت في عينيها أغصانا لينة ، تحركها الريح بعنف فتنثر أوراقها علينا ، تنطلق في فضاء الغرفة ، تلاصق الستائر الجامحة و تضفي لون الدم على ظلال

الرايات ، تراقص الأشياء المتطايرة بلا هوادة و تدعو لدخول غجر مسالمين .

ثمة بحيرة صغيرة انبثقت في المساحة ما بين الباب والنافذة ، خلعت ملابسي أمام استغراب أختي و الممرضة ، دخلت البحيرة عاريا ، حاملا أشلاء القتلى ، معلنا بدء الحصار و هزيمة أصحاب بكوا ليلة سفرنا .

كنت أسبح بنشوة في دمائهم .

٣ - الجوع

أمامي أمرأتان

صورة معلقة لأختي المشتعلة ، و أخرى لامرأة تدعى ميونخ ، و أنا أشرب خمر الأمس لأنام مطمئنا و قنوعا بما أرسلته لمعدتي الخاوية من رسائل سرية و فضائح لم تكن .

المحطات

هكذا مرة أخرى

يشتعل جسده خلسة مع سقوط المطر اليومي ، فيحاول أن يستعيد شكل طرق مرت سريعا أمام الطاولة الجالس قبالتها . لقد أخذت على عجل انحناءات الثلج المسرف في جماله . امرأة تنزف أنفاسا لاهبة ، و أشجارا خلعت أحلامها النهارية و مضت صوب أفق فقد نشيده .

أمامه نافذة توقد نار الصباح الجديد ، و تتجه به صوب بحيرة بنى حولها قلعة لاصطياد الفئران ، و خيانات القادة ، وزرافات الليلك . كان وحيدا حينها ، و النافذة مفتوحة في زاوية الرأس المثقل بقرع المطر ، تنتظر قدوم القطارات التي تعبر الخرائط و تنتهي عند ذاكرة المحطات ، حيث يتراكض الجمع باتجاه الصبّار ، و أحفاد المطر ، و حيث الكلاب المدللة تمد أيديها نحوه .

يا سيد الشرق ، لست وحدك هنا ، فثمة فراشة الغياب ، قنافذ الحضور ، أمين الطواحين ، سائقو الدراجات ، غيوم منتحرة منذ ساعات ، طفيليات الدروب ، الآلات الموسيقية ، جرائد اليوم .

أمام المحطة تشهد عذوبة نصل يغرسه شاب في خاصرة صاحب الكشك الصغير ، ثم يجري نحو جبال بعيدة و يضيع في غاباتها . عجوز يجلس تحت شجرة هرمة ، يحتضن زجاجة

خمر و يغني للأوسمة المتعبة من الاسترخاء فوق سترته . اثنان يعتقلان الوقت بقبلات دافئة . أطفال مطوقون بحبال الموسيقى ، يحتفون بعلبات موتزارت .

هكذا مرة أخرى يقود برنامجه اليومي :

* عجولا باتجاه المحطات .
* خفيفا ينزل عند المحطة المألوفة .
* متعبا يستلقي فوق المقعد المتحرك بين المحطات و يشعل أصابعه ليستمتع بالتدخين .

نوستالجيا

قولوا و أنتم تلقون النظرة الأخيرة على هذا الشارع ، بأن الخيول التي تدك الأرض مسرعة ، ستتقاسم كبدي ، ثم تمضي على مضض باتجاه توابيت تنتظرني عند بوابة المطار لتهتف :

كم كان يتمنى لو راقص المراكب الشراعية قبل
أن تغزوها الرياح و تطمر سواحلها المعروفة .

قولوا و أنتم تخرجون ما تبقى من ذاكرة الحنين لأحباب غادروا أو تساقطوا مع أوراق العنب في حقول الغياب ، بأن الولد الذي يعبر هذا الشارع قد سقط على وجهه ذات يوم و نُسي .

قولوا و أنتم تشربون بيرة الصباح بأن أمه لم تعد تهوى شعرها ، تبحث الآن عن مقص تجتث به الولادات السبع ، و تخبر أهل الحي بأنه يتجول الآن في منتزهات القمر كشحرور مصاب بالتهابات حادة .

قولوا و أنتم تنشدون في مسيرتكم اليومية بأنه كان واحدا من هؤلاء ثم أشيروا الى الصور التي تحملونها .

قولوا، لعله يعبر الشارع المنسي ، و يصل نحو الصباحات الشريدة ، و يغتسل بشمس الحنين في جزيرة مازالت

تحتفظ بهويتها الوهمية .

قولوا ، فلم يعد يملك هذا الطريد غير نشوة الأسماء وقلائد الأشكال المألوفة .

قولوا ، لعله يسمع و يصل .

سنة القـطط

لو أستريح مرة من عناء النوم لأمكنني أن أزيح العربات الواقفة فوق النافذة، و أن أطرد الحصان الأبيض ، الجالس الآن قبالة المرآة ، يمشط خصلته بمشطي ، و أن أشارك الآخرين في السير خلف جنازة لا أعرف صاحبها .

لكن كيف يمكنني أن أفعل كل هذا ، وأنا في النوم أكاد أن أسقط في قبضة قبيلة تضرب خيامها فوق جبهتي و تطلق الرصاص فرحا بعرس بدوية عذراء . أ و أكاد أن أسقط صريعا و أنا في خندق محتميا من الرصاص ، و انفجار القنابل في حرب لا أعرف طرفيها . أمتدح الأسرى و المطاردين .

كان يمكنني أن أستريح لو قبلت دعوة إمرأة قابلتها عصراً و هي تجمع الأشجار في سلة ملونة بالأصداف ، لقضاء وقت ممتع في مشاهدة المصارعة الحرة ، أو لمشاركتي بشرب كأس حول نافورة تراسل أحبابي في عواصم عرفتها مرة و نمت .

نزهة المساء

عندما يهبط عليك المساء و أنت وحدك في هذه المدينة ،
تدعو أصحاب الحروب الموروثة لصحبة جميلة تنتهي بالقتل .

عندما يلامسك المطر و تدخلك البرودة غازية ، راغبة في
حديث طويل و عراك خاسر .

عندما يكون الظلام قلادة تتحلى بها الذبيحة الممدة فوق دخان ميت لشارع منهار .

عندما يهرب كل شيئ من يدك و تلتوي منارة الطريق أمامك ، و تبلغك الطيور عن رحلة لقارة مهجورة .

حينها :

ستدرك بأن خطواتك مرتبكة بشرك كائن تراه يصافحك و يحدثك عن حالة الطقس المتوقعة لهذه الليلة و أنت لا تعرفه .

حينها :

ستجزم بأنك داخل في يوم جديد لن يتسع فيه الوقت للحديث مع امرأة تكشف عن مفاتنها و تدعوك لسهرة طيبة مع أشباح اللغات .

حينها :

ستتيقن بأنه ليس هناك غير وقت تنتظر أن يترجل من صهوة حصانه لتقول له :

أيها الوقت الملتجئ الى جيوبنا بعد محنة البحث عن مسكن تطل منه مدخنة ، اننا لا نملك بيوتا للايجار ، فاذهب بعيدا بأيامك القذرة .

و تدخل الفندق ، يسألك موظف الاستقبال عن نزهة المساء فلا تملك إلا أن تعطس في وجهه .

ذاكرة [٢]

سأنام كما أنام كل ليلة :

أنظر باستغراب الى المرأة العارية الصدر المستلقية بقربي فوق سرير طفل يتهادى مع حركة الأمواج ، و نحن تائهان في المحيط الاطلنطي

سأستيقظ كما أستيقظ كل صباح :

أشعر بأن ظهري ينسلخ ، أفتح عينيّ . آنذاك سأرى رجليّ مقيدتين بسلاسل و يجرني حصان من فصيلة الكبوتشي ، و ثمة جماهير على امتداد جانبي الشارع تصفق و تأخذ الصور التذكارية .

الحفلة

في مساء وحشي ، يطل عليك من الأبواب ، في مدينة يهوي شعبها عودة الوقت الى الخلف . تحف بك النصال و أنت حر لمرة واحدة ، تمارس عبور الطرقات الأليفة . تخرج عليك من القمر امرأة مذبوحة ترتدي ثوبا حريريا أحمر ، مطرزا بأسماء واحتمالات قابلة للرؤيا و الاشتعال .

لا تتعب نفسك بطرح أسئلة تحتاج الى كثير من الشرح ، سوف تخبرك بأنها أتت للمشاركة في الحفل ، و أن هذا الوقت وقتها ، فتتقدم نحوها قائلا :

– لقد هبت من هنا موجة ثلجية ، سحبت معها فصول اللقاءآت و قبلات عشاق قضوا زمنا و هم ينتظرون .

لن تعطيك فرصة لقراءة التاريخ ، ستدعوك لارتداء سلاسل في يدها و أنت ساهم تمشي خلف حاشيتها اللامرئية ، تتعرف على صاحبيها اللذين كشفا لك عن مشهد قديم حدث أمام أسوار قصر صحراوي تسكنه البراعم الذابلة ، فسائل الدم ، الصراخ المكشوف . الكرنفال اليومي . و فيضانات صغيرة تدحرج معها الأسماء و الصور و العواصم . تضاريس التنفس . الأقواس النائمة ، السهام الغائبة و اللهاث ..

اللهاث ..

اللهاث ..

حينها ستتأكد أنها امرأة فاتنة تغري الأصابع و الأنهار بارتكاب دورة جديدة حول الشمس .

تقودك نحو مبنى يطل على بحيرة تلهو فيها الدلافين ، وتدعوك لدخول الأيام ، و أنت لا تملك الخيار .

أيتها الأميرة الزاهية ، أنثري ريحانك علينا
و ابتهجي.
لقد أخذنا العطش الأبدي نحو دمك لنقف يوما كاملا
باتجاه الصمت .
أيتها الأميرة
يا ذبيحة الوقت
يا ذبيحة الوصف
أنثري ريحانك علينا و ابتهجي

تنظر اليك ببرود و عيناها تشعان مثل نجمة سكرى

بصخب حفل لا تراه . تأخذها بين يديك لتكتشف جسدها المطعون :

أيتها الأميرة الزاهية ، ستنفض الجهات التي عبثت
بكؤوسنا و نحن في حيرة من معنى سلب أنفاسنا بلهيبه

....

و حين يطل الصباح ستجد نفسك معها ، و قد غادرت كل قطارات المدينة محطاتها ، و أنك قد فقدت تذكرة العودة للطرق المعشوقة .

لذا عليك أن تبقى .

مرة أخرى لن تملك الخيار . انها امرأة الحفل .

أيتها الأميرة الزاهية
أيتها الذبيحة الزاهية
هات لنا دليل المكان ، لنأمر باسمك عن هوية
هذا الكون و نصف الحديث الذي نريد .

....

و في كل مساء ، حين تسمع صوت القطار البعيد ، ستتذكر غرفتك ، و قطتك المتروكة دون طعام . ستصلك رائحة شواء لحم تحبه ، و ضحكات الأصدقاء ، و كل شيئ .

هل تعتقد بأنك ولدت للتو ؟ .. صرت تفكر أحيانا بالهرب منها ، و لكنك ستظل مقيداً بها .

انها أميرة الحفل
آلهة الذبح .

صدر للمؤلف :

البياض - ١٩٨٦

يصدر في سلسلة :

" كتاب كل

الشوارق

عزلة الملكات

الجرائر

الخيول

حنجرة الغائب

ها يداي فارغتان

آرتو في المسرح

خرجت من الأرض الضيقة

فن التمثيل السينمائي

وقت للكتابة